

# مادة تاريخ العمارة والتدريس في الأكاديمية الحديثة.. نظرة تحليلية

□ وليد أحمد السيد \*



والحديث على مستوى العموميات التي قد تضرر منها القارئ الكريم، دعونا نسلط الضوء على حالة التاريخ في العمارة وتركز الضوء أكثر فأكثر على الآلية التي يتم بها بحث وتناول مادة تاريخ العمارة كمنهج تدريسي للطلبة. وبهذه المناسبة في هذا المقال أن نتناول مجموعة من النقاط بالترتيب التالي: أولاً تاريخ العمارة كعلم منهجي وموضوع، والنقطة الثانية: مركزية أو لا مركزية دراسة تاريخ العمارة في الوعي العربي الإسلامي والثالثة: (التاريخية) دراسة وتدريس التاريخ المعماري في الأكاديمية الحديثة، ونظراً لأن دراسة التاريخ أو الحديث عنه بشكل عام قد تبدو مملّة وجافة فسنقدم لاستقطاب انتباه القارئ بين الفينة والأخرى كيلا يستسلم للنحاس والله الموفق، ونبدأ بالنقطة الأولى المتعلقة بمنهجية تاريخ العمارة كمنهج علمي، فلا تعدى منهجية البحث في تاريخ العمارة القديمة أو الحديثة أو الغنى من حيث المبدأ عرض سريدي ووصفي لا يبرز الطرز والأنماط والسلالات التي سادت في حقبة زمنية معينة، مع مسرد كرونولوجي يبرز المآثر والمخلفات التي تميزت بها تلك الفترة عن غيرها، بدرجته أن الربط الذهني بين الفترة الزمنية التي تدرس بها تاريخ العمارة وبين المكان يتم مباشرة بمجموعة من الأنماط والطرز أو ببنى متميز الخ، فعلى سبيل المثال، عندما نذكر العمارة المصرية القديمة بتردد في الأذهان مباشرة الإهرامات أو المسلات أو غيرها، أو عندما نذكر مدينة روما من ناحية معمارية يفتقر الكولوسيوم للذهن، أو حينما نتكلم عن آثار مدينة تونس نتذكر جامع القيروان، أو حين تذكر الأندلس نتدافع الذكريات المجيدة وتتناقض مجموعة من المياني لأنها ن كقصص الحمراء وجامع غرناطة ومئذنة الجيردال، أو حينما نذكر مدينة القدس تمتزج مشاعر المجد والأبى والفخر بقبة الصخرة وغيرها، يبدو ذلك منطقياً وشرعياً

نظريات العمارة مشتقة من التاريخ نفسه!! فما بال الباحثين في دراسة أو تدريس تاريخ العمارة أن يعمد أحدهم لتقنين وتعليق التاريخ ضمن أطر وطرز معمارية جامدة لا تؤدي رسالة سوى التوقع عند حدود السالفة؟ وما بال أحدهم لا يسلط الضوء على الرسالة التي ينبغي تعلمها من كل حلقة درس للتاريخ المعماري؟

في الحقيقة وبمعرض الإجابة عن بعض هذه التساؤلات الاستفهامية إن جازت الإجابة، يبدو أن الخلل يكمن في مركزية (علم التاريخ نفسه) في الوعي العربي الإسلامي، وآية ذلك أن جميع الموسوعات العالمية للتاريخ المعماري والمراجع والمؤلفات قد صيغت من منظور الباحث الغربي بالمعنى والمشاعر الوطنية أو العاطفية، وحين نتذكر العمارة المصرية القديمة قد يصاحب ذلك مشاعر الغموض أو الرهبة أو الخوف ومن هنا يبرز تساؤلنا التالي: هل يتم جلب مادة تاريخ العمارة (العربية الإسلامية) بما صاحبها من عوامل ومؤثرات ومتغيرات وروايات، أم أنها تدرس للطلبة كنتاج صوري وكرموز جامدة صلاء خالية من مضامينها؟ بكلمات أخرى هل يتم الربط بين شكل المئذنة على سبيل المثال وبين الآلية التي أنتجت وأبرزت هذا المعلم في التاريخ الإسلامي؟ وهل يتم إيضاح وتتبع عوامل نشأة الغناء والعمارة ونمطية ام هل ينظر له كنتاج صوري لا يختلف بين البيت وبين المدرسة أو المسجد أو البيمارستان؟ هل يتعرف الباحث أو الطالب على البدائل المختلفة للأنماط والمقررات التي ترثها، وبكلمات أدق هل هناك ربط وتحليل أم هل تتشحن لأذهانهم كرمز معلية وجاهزة؟ في الحقيقة وفي إطار موضوع تناول تاريخ العمارة كمنهجية ربما من المفيد ملاحظة أن هذه المادة بالذات ينبغي أن تدرس ضمن حلقات نقاش ومداخلات لا كتلقين، إذ أنها لا تخلّف أدنى اختلاف عن نظرية العمارة، بل أن

غيرنا إذ قدم لنا خدمة بتوثيق عمارتنا وإن كان ذلك (صورياً)، إنما نلوم أنفسنا لتقوفا عند حدود هذه (الصوريات).

ومن هنا نصل إلى النقطة الثالثة (التاريخية) بمعنى أنه حبيس الإطار الزمني الذي كسبت به هذه المؤلفات من ناحية، وحبيس القوالب الصورية الجامدة التي ندرج بها هذا التاريخ المعماري بمعزل عن العوامل والآمال والألام لدى أفراد من ناحية ثانية، ليس ذلك فحسب بل أنه حبيس جومونا في أحرار نقله نوعية بقراءة هذا التاريخ المعماري بمنظور اليوم لا بمنظور التاريخ الذي صدرت به طبعات المؤلفات الأجنبية التي لا تتجدد مع مرور الأيام، ولذلك ترى أن البعض ممن يدرس تاريخ العمارة قد تقوفا هو أيضاً عند مجموعة من أدوات العرض مادته وأصبحت مادة تاريخ العمارة روتينا مملأ ترعب الطلبة حين ذكرها لخلوها من الجدة والشذ العفلي، بل هي حصّة غالباً ما صاحبها عرض للشرائح وإطفاء الأنوار وبذلك تحلو الفرصة لغفوة سريعة استعدداً مادة أخرى تتطلب نشاطاً ذهنياً أكبر من مجرد الاستماع والتلقين، وبدلاً من أن تكون حلقة نقاش مفتوح بعد تعيين مادة للقراءة والتحضير المسبق لهذه الحلقة - التي يتعلم منها الأستاذ نفسه بعضاً من الخواطر التي تتمخض عنها عقليات بعض طلبته - التبرّح بما يفتح المجال لأبحاث ودراسات - تتحول هذه المادة إلى بوتقة خمول وتناؤب واستسلام للزحف البطء.

تلك كانت بعض الخواطر السريعة أملا في أن تدق عتقولا نيرة، وإن كانت من أطلال أو أمثال فتقدم هذه الخطرات معتزلة بقوب الفجأل والجماع مع دعوة لتناول نقاش من القهوة لمن دامه النعاس.

\* دكتوراه نظرية العمارة - جامعة لندن

## من مفردات التراث العربي الإسلامي: المآذن وتطورها في العمارة العربية الإسلامية (٢)



القيروان بتونس، أو مئذنة الجيردال الفريدة بالاندلس.

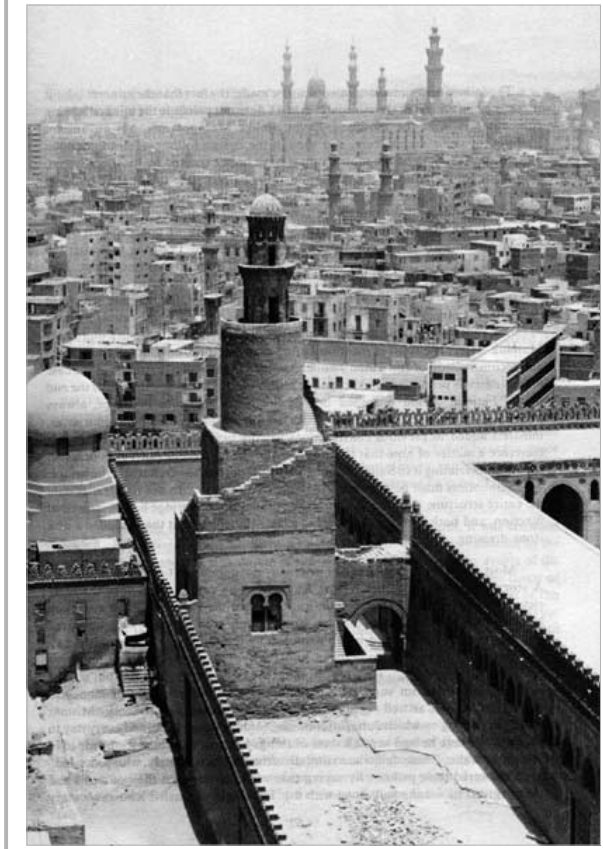
هذا العرض لأنماط المآذن التي سادت في القاهرة في العصور الوسطى وفي مدن شمال أفريقيا والاندلس يدل على مدى المهارة المعمارية وعدم الجمود في اشتقاق مجموعات متنوعة من الأنماط اعتماداً على وحدة الأصل، وقد شهدت المآذن بين هذه الأنواع تنوعاً في استعمال المواد والتكسيبات الخارجية، بالإضافة إلى التشكيل الفريد والمتغير بين النسب للأقسام العديدة وصولاً إلى مجموعة رشيقة من المآذن التي تعد بحد ذاتها وبمعزل عن التكوين الكلي للمباني التي تنتمي إليها - ويحق - مآثر شاهدة على القدرة الفنية والتكوينية والتناسق البصري لدى المعمار المسلم في تلك الفترة المجيدة من تاريخ العمارة العربية الإسلامية.

وهذا البحث النظري في تاريخ تطور المآذن وتشكيلها لا يغفل أهمية إجراء بحث مواز ومصاحب لتتبع تطور وظيفية المئذنة منذ ذلك الوقت حتى الوقت الحاضر، ودراسة العلاقة بين الشكل وبين الوظيفة وهو ما سيشكل موضوع بحث آخر.

اسطواني، الذي نما لاحقاً لنموذج آخر حيث يومن الجزيئين الأول والثاني متممي الشكل فيما يكون الجزء الثالث اسطوانياً، وأقدم الأمثلة على هذا النوع هو مئذنة مسجد المارديني، وقد تطورت النماذج السابقة ليتميز نوع آخر يتميز بقاعدة مستطيلة يتلوها جزء اسطواني كما في مئذنة بيبس ١٣٠٤م، كما نتج نوع آخر اسطواني تام لجميع أجزاء المئذنة كما في مسجد استقر ١٣٤٧م، أما النموذج الذي تم تكراره بشكل كبير لاحقاً فتمثل بمئذنة مسجد السلطان قايتباي التي تعود للقرن الخامس عشر الميلادي، التي احتوت نهايات متميزة للمئذنة وبلغت النسب بين الأقسام المئذنة أوجهاً، وبالإضافة إلى النماذج التي ذكرت فقد كانت هناك نماذج فريدة مثل مئذنة جامع ابن طولون التي تميزت بالدرج الخارجي الذي يلفق حول المئذنة بما يحاكي ملوية سامراء وهي من أروع الأمثلة للمآذن في القاهرة نسياً وتكويناً، وبالإضافة إلى هذه النماذج الملوكية بالقاهرة هناك نماذج فريدة تنتمي لهذه المجموعة بأقسامها الأربعة التي انتشرت في مدن شمال أفريقيا، مثل مئذنة جامع



□ لوتارد - لندن



ذكرنا في اسبوع سابق اصل نشأة المئذنة في الإسلام، وأنها عرفت بثلاثة الفاظ كل منها له مدلول واصل منشأ، وهي المئذنة والصومعة والمنارة، ووصلنا إلى بداية تطور المآذن بشكل كبير بالشكل الذي نعرفه اليوم في مدن شمال أفريقيا بشكل خاص، ومن ثم تنوع أنماطها فيما بعد بين الأقاليم الإسلامية المترامية الأطراف، ليتميز عنها اليوم مجموعات كبيرة من الأنماط التي تراوح بين التقليدية وبين المعاصرة التي تتناسج بالتجريدية أحياناً، وتكمل في هذا الأسبوع الحديث عن بداية تطور المآذن في مدن شمال أفريقيا.

بالبحث في الدراسات التي تتبعت اصل تطور المئذنة في مصر بالذات، يبدو أن أقدم وأول نموذج للمئذنة هي مئذنة جامع الجيوشي التي تعود للعام ١٠٨٥م (انظر الصورة A)، التي تتكون من ثلاثة أقسام اسطوانية مستطيل الشكل، الذي تطور لاحقاً ليصبح مئذنة الشكل كما في مئذنة مسجد أبو الضعفر المبنية في العام ١١٥٧م، ومع الزمن حدثت تحورات على نسب الأقسام الثلاثة التي تتألف منها المئذنة، إذ حصلت استئطال للقاعدة المستطيلة بالاسفل، وكذلك استئطال الجزء العلوي الاسطواني الشكل كما تراها في نموذج مسجد ومدرسة سائر وسنجر الجاولي ١٣٠٤م.

ونظراً لتكون جسم المئذنة من الثلاثة أقسام الرئيسية: القاعدة مستطيلة الشكل التي يرتفع عليها الجزء المربع انتهاء بالشكل الاسطواني أو المنمنم بالإضافة إلى الجزء الصغير الرابع الذي يشكل نهاية كعبة صغيرة، فقد تضاربت نظريات الباحثين في اصل هذا التكوين العضوي، ومن هنا نشأت نظرية بين المستشرقين الذين بحثوا في هذا الموضوع من أمثال Butler لرد اصل هذه التكوينات لبعض الأبراج التي انتشرت في العصر الفرعوني، إلا أن هذه النظرية لا تجد قبولا لدى بعض الباحثين أمثال Creswell الذي يذهب إلى أن هذه النظرية معلا ذلك بان الشكل الناتج للمئذنة في العصور الإسلامية قد تكونت عبر فترات طويلة وبالتدريج، فيما اندثر البرج الفرعوني بالإسكندرية قبل وقت طويل بفعل زلزال.

ويمكن بسهولة ملاحظة مجموعات من التحورات التي حدثت بشكل متسارع على الأقسام الأربعة للمئذنة ونسبها عبر الفترات المختلفة، فقد تحول الجزء الأسفل من المئذنة ليصبح مئذنة تماماً مثل الجزء الثالث، وأبرز الأمثلة هو مئذنة بشتاق في العام ١٣٣٦م، وقد تتابعت بعدها مجموعة نماذج للمئذنة بشكلها الذي يحتوي جسماً مئذنة كقاعدة يتلوها شكل

## التنسيق الحدائقي المنزلي الحديثة وعناصر التكوين المعماري



□ لوتارد - لندن

عزينا القارئ بعضاً من فوائد النخيل بشكل خاص، وهناك النباتات المتسلقة التي يمكن استعمالها لتغطية مساحات عمودية من البيت كعض الأجزاء للمنزل مثلاً، أو التي يمكن أن يتكامل تصميم الحديثة من خلالها بحيث تتسلق أطر ودعائم خشبية، ومن أشهر هذه النباتات المتسلقة المتفرعة على الأضلاع هي الكرمة أو أشجار العنب، ولا تخفي أهمية العنصر النباتي التي تلطيف درجات الحرارة وتوفيق المناطق الظليلة وتحسين التنوع اللوني الجمالي وتوفيق الروائح المنعشة، إذ هي بمثابة الغذاء بالنسبة للروح.

أما العنصر الثاني والتكوين من العناصر الصلبة فيكامل مع الأول بتوفير مناطق وإسوار ومرات ومقاعد حجرية ثابتة، أو مرتفعات ومنخفضات ضمن الحديثة أو تليط أراضي خارجية بحيث يمكن استعمال الحديثة في أوقات السنة التي قد تكون المساحات الخضراء رطبة، كذلك يمكن أن تشكل منطقة للشواء أو لاعادة الوجبات الخارجية في حال عمل غداء خارجي ضمن الحديثة.

أما العنصر الثالث والبالغة أهميته أن تتكامل الحديثة به، وهو حياة هذا الكوكب فهو الماء، وتتعدد التشكيلات المائية التي يمكن أن تتواجد بشكل لا حصر له، وتعتمد على مقدار سعة خيال المصمم والإبداع في التنسيق بين العناصر الثلاثة معاً، ومن الأشكال التقليدية المألوفة هي البحيرات الصغيرة الاصطناعية، أو فسقية الماء أو النافورة أو بركة صغيرة. هذه كانت مقدمة عامة للتشديد لتناول موضوع التنسيق الحدائقي بالتفصيل مع عرض نماذج عربية وعالمية للتوضيح مع إشارات وملاحظات لكي تكون حديثك ناجحة ومتميزة عزينا القارئ، وهو ما سنتناوله ابتداء من العدد القادم.

